

المبحث الثاني

العجلة والأناة في ضوء علم النفس القرآني



بما أن العجلة والأناة من السلوكيات أو الطباع النفسية، يحسن بنا أن نسلط الضوء بإيجاز حولها من زاوية علم النفس، وخصوصاً علم النفس القرآني، لنعرف الدوافع التي تدفع المتعجل إلى العجلة، وكيف يصبح الإنسان ذو أناة وتؤدة.

لقد فهم علماء النفس من حديث القرآن الكريم عنها أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

[١] النفس الأمارة .

[٢] النفس اللوامة .

[٣] النفس المطمئنة .

والنفس الأمارة : نفس ذات قوى ، هذه القوى يسميها علماء النفس : القوى المحركة ، ويقسمونها إلى أقسام ثلاثة :

■ **القوى الباعثة** : أي التي تبعث على الفعل وتأمر به ، وتشمل :

* **القوى الشهوانية** : كشهوة الغذاء وشهوة الجنس .

* **والقوة الغضبية** : تحقيقاً للغاية التي يراد بها الغلبة .

■ **القوى الفاعلة** : وهي التي يصدر عنها تحريك الأعضاء بمباشرة الأفعال طاعة للقوة الشهوانية أو الغضبية ^(١) .

■ **القوى العقلية** : وتشمل القوى التي تجعل النفس مستعدة لقبول العلوم

(١) القرآن وعلم النفس : للدكتور / عبد العلي الجسماني ، ص ١١٢ ، ط . الدار العربية للعلوم ، بيروت ، الأولى ١٩٩ ، بتصرف .

والصناعات الفكرية وينقسم الناس بمقتضاها إلى ذكي وبليد ومغفل ويقظ ، وكذلك القوى التي تميز بها النفس بين الضرورات والحائزات ، وتكشف بها حقائق الأمور حتى تقمع بها اللذة العاجلة وإيثار للذة الآجلة ، ويجعلها تتحمل المكروه العاجل لسلامة الآجل فيسمى صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه يكونان بحسب ما تقتضيه مسألة النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة (١).

وعلى هذا يمكن القول بأن النفس الأمانة تأمر صاحبها بالشر والخير، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُرِيْ نَفْسِيْ اِنْ اِنْفَسَ لِاْمَارَةٍ بِالسُّوْءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ اِنْ رَبِّيْ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف : ٥٣] . وفي الاستثناء ما يدل على أنها قد تأمر بخير وذلك بتوفيق الله وهدايته لها .

قال ابن حزم - رحمه الله - :

(... وقد علمنا أن الله عز وجل ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين إحداهما لا تشير إلا بخير ، ولا تحض إلا على حسن ولا يتصور منها إلا كل أمر مرضٍ ، وهي العقل ، .. والثانية : ضد لها لا تشير إلا إلى الشهوات ، ولا تعود إلا إلى الردى وهي النفس ... فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان وهما قوتان من قوى الجسد الفعال ، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهريين العجيبين الرفيعين العلويين ، ففي كل جسد منهما حظه على قدر مقابله لهما في تقدير الواحد الصمد - تقدست أسماؤه - حين خلقه وهياه ، فهما يتقابلان أبداً أو يتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المدخولة ، واستضاء بنور الله واتبع العدل ، وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ، ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح ، وعظم الالتباس ، وتردى في هوة الردى ومهواة الهلكة) (٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٣ ، بتصرف .

(٢) طوق الحمامة : لابن حزم الظاهري ص ١٢٢ ط المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٩٧٠ .

فالنفس من حيث إرادتها الخير لا توصف بأنها خيرة أو شريرة في مرحلتها الأولى ، وإنما هي قوة يمكن أن توجه إلى الخير كما يمكن أن توجه إلى الشر^(١) .
وبناء على هذا التحليل يمكن أن نصنف العجلة ضمن القوى الغضبية الباعثة على تحقيق الغاية التي يراد بها الغلبة .

والغضب يدفع إلى التعجل لتحقيق الغايات ، وكذلك الشهوة ، وسواء كانت هذه الغايات حسنة أو قبيحة ، لأن الذي تسيطر عليه الشهوة أو الغضب لا ينظر في عواقب الأمور .

(ولما كانت النفس الأمانة ذات طبائع تنعكس في نشاطها على طبائع الإنسان كان لابد من مجاهدتها ، ومجاهدة النفس إنما هي ثمرة الإرادة ، والتمرس بالصبر والثبات والجلد وتحد المثيرات ، والتغلب على المغريات ، والوقوف منها كالصخرة الصماء الراسخة أمام الرياح العاتية^(٢) .

ومما يعين على مجاهدة النفس الأمانة تهذيبها بالشرع الحنيف الذي أوضح مكنونها وأبان خبيئتها ، وخاطبها تارة مرغباً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٢٧) أرجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً (٢٨) ﴿ [الفجر : ٢٧ - ٢٨] ، وتارة محذراً : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (٥) ﴿ [الانفطار : ٣] ، ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴾ (١٤) ﴿ [التكوير : ١٤] .

ففي هذا القول البليغ تحذير للنفس البشرية أن تحضر شراً ، وتهييج لها من أجل أن تحضر خيراً ، والآية في سياق السورة بإيقاعها العام وحدة تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله ، وتأوى إلى حماه ، وتطلب

(١) القرآن وعلم النفس : د/ عبد العلي الجسماني ص ١٣٧ .

(٢) انظر القرآن وعلم النفس : مرجع سابق ص ١٣٧ ، عناصر القوة في الإسلام : للشيخ السيد سابق

ص ٦٦ ط دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٧٢ .

عنده الأمن و الطمأنينة والقرار (١) .

وهذه النفس قد تتمادى في الأمر والبعث على الخطأ ، وقد تتوقف عند حدٍّ معين وتبدأ في اللوم على ما كان ، وعندئذ تسمى النفس اللوامة .

■ **والنفس اللوامة** : هي التي تلوم صاحبها إن فعلت خيراً لأنها لم تستكثر منه ، وإن فعلت شراً لأنها فارقتة أو اجترحتة .

قال الحسن البصري - رحمه الله - :

(إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه ، وليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة (٢) .

(ولوم النفس هو بداية لطريق الطمأنينة ، لأن اللائم لنفسه يكون في ضيق وخرج وقلق مما قدمت ، حتى إذا استفرغت النفس جهدها في الاستغفار واستشعار التقصير يأتي دور اليقين في سعة رحمة الله فتحدث لها الطمأنينة وتستفيد من تلك التجارب فيما تستقبل من الحياة ، وقد صور الله - عز وجل - حالة النفس اللوامة وما تبلغه من الضيق والقلق في موقف الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، قال تعالى معلناً توبته عليهم وعلى أصحاب النفس اللوامة : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١٨) [التوبة : ١١٨] .

ثم امتدح الله - عز وجل - أصحاب الأنفس اللوامة بأنهم صادقين وأمر المؤمنين جميعاً بأن يكونوا معهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

(١) الأساس في التفسير : لسعيد حوى ١١ / ٦٣٩٣ ط دار السلام - القاهرة .

(٢) تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ٤ / ٤٤٨ ط دار النهضة - بيروت ١٩٩٦ .

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

والنفس اللوامة نفس صادقة فعلاً وضمير حي يقظ ، وهي بخلاف المتمادية في الضلال التي قد ترى الحق باطلاً والباطل حقاً وتتمادى في هذا الوهم وما تفيق منه إلا على الهلاك ونزول العذاب .

■ ولوم النفس ودمها من شأنه أن ينهها عن الهوى وهو التمادي، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١] ، فإن لأهواء الأنفس سلطاناً قاهراً ، وإنه إذا لم يقم الإنسان على نفسه ناهياً ينهها وزاجراً يزجرها عن اتباع هواها كلما دعته دواعيه انقاد لهذا الهوى الذي يغلبه على أمره ويطرحه في مطارح الضلال والهلاك (١) .

■ ولهذا رفع الله قدر النفس اللوامة فأقسم بها ، قال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ

الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ [القيامة : ١-٢] .

■ وعلى هذا فالنفس اللوامة تلوم صاحبها على تعجله في الأمور ، وتذمه ، وهذا يفيد أن المتعجل ينفعه كثيراً - بإذن الله - وهو يعالج طبيعته المتعجلة أن ينظر في مواقفه السابقة أو مواقف غيره من سلفه ، ويأخذ تجربتهم ، فيتحصن بهذه الخبرات في مستقبل حياته ، فيصبح بعيد النظر في عواقب الأمور ، ويعرف كيف يزنها ويوازن بين خير الخيرين وشرّ الشرين ، ساعتها ترتقي هذه النفس اللوامة إلى درجة المطمئنة ، فتصرف في أناة وحلم وحكمة وثقة بوعد الله لا تستعجل رزقاً ولا تستعجل نصراً ولا تستعجل حصاد ثمار الأعمال ، ولا تستعجل في إصدار حكم ... وبالجملة فالنفس المطمئنة نفس كبيرة واثقة ، لا يدخلها الريب ولا الاستعجال ، ولنلقي الضوء عليها أيضاً من زاوية علم النفس القرآني ليتضح مصداقية هذا الاستنتاج .

(١) التفسير القرآني للقرآن الكريم : لعبد الكريم الخطيب ٨ / ١٤٤٤ ط دار الفكر العربي - بيروت .

■ **النفس المطمئنة** : هي النفس الناعمة بروح اليقين ، الواثقة بفضل الله ونعمته ورحمته (١).

يقول صاحب الظلال - رحمه الله - :

(المطمئنة إلى ربها ، المطمئنة إلى طريقها ، المطمئنة إلى قدر الله بها ، المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء ، المطمئنة فلا ترتاب ، والمطمئنة فلا تنحرف ، والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق ، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرهيب) (٢) .

■ **الطمأنينة** إنما هي سكون القلب إلى الشيء ، وسكون القلب يعني عدم اضطرابه وعدم قلقه ، ومنه الأثر المعروف - الصدق طمأنينة والكذب ريبة - إن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ، إذ أن سكون القلب وطمأنينته من يقينه ، واضطرابه وشكه من شكه ، الطمأنينة النفسية سكون يقويه أمن صحيح وأمان شامل صريح .. الطمأنينة سكون آمن في استراحة نفس ، وهي موجب من موجبات السكينة ، لذلك جعل علماء النفس ومنهم أبراهم ماسلو - مثلاً - جعلوا الطمأنينة حاجة إنسانية ملحة وتأتي بعد الحاجات الفسيولوجية كالحاجة إلى الطعام والماء فتحت الشعور بالأمن صنفوا :

[١] الطمأنينة .

[٢] النظام .

[٣] الاستقرار (٣) .

(وهذه الطمأنينة التي تحصل للنفس ثمرة إيمان عميق بالله .

(١) القرآن وعلم النفس : لعبد العلي الجسماني ص ١٦ .

(٢) في ظلال القرآن : لسيد قطب ٣٩٠٧٦ / ط دار الشروق - القاهرة .

(٣) علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية والتربوية : للدكتور عبد العلي الجسماني ص ٩٠ - ٣١٤ ط

الدار العربية للعلوم - بيروت ١٩٩٤ م ، بتصرف وإيجاز .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

فلا ترتقي النفس إلى هذا المرتقى إلا بعد بذل الجهد في التعرف على خالقها - سبحانه وتعالى - معرفه حقيقية ، وهذا يتم من خلال النظر في معاني أسمائه تعالى الحسنى ، (معني الرحمن - اللطيف - الخبير - الرقيب - الخالق - الرازق ..) وفي آيات القرآن ، وفي فعله تعالى في العباد ، والتأمل في ملكوته سبحانه ، وكذلك ترتقي النفس إلى هذا المرتقى بعد زمّها بزمام الشرع وخطمها بخطامه ، واتهامها ولومها على التقصير ، فإذا ارتقت إلى هذا واطمأنت : طرحت كل الشواغل خلفها وأقبلت على بارئها - سبحانه - تذكره وتأنس بالخلوة به - سبحانه - حتى كان أحدهم عندما يكون في شغله وأنسه إذا طرقه طارق يدعوا عليه بدعاء لذيذ عجيب يقول : (اللهم من شغلني عنك فاشغله بك عني) .

وعندئذ يكون لهذه النفس مجموعة من السلوكيات والطباع التي تحمل محل سلوكيات وطباع النفس الأماره ، ومن أهمها : الصدق والأناة والحلم والحكمة والصبر والتؤدة واليقين .. وغيرها من محاسن الخصال وحميد الطباع .

وخلاصة القول :

أن العجلة والتسرع من طبائع النفس الأماره ، والأناة والحلم من طبائع النفس المطمئنة ، والدعاة إلى الله تعالى أحوج الناس إلى دراسة هذه الطباع وتهذيبها في سلوكهم أولاً ، إذ كيف ينتصبون لدعوة الناس إلى ربهم ولم يهذبوا سلوكهم وطبائعهم بعد .

(بل العجيب ونحن نتحدث عن العجلة والأناة في الدعوة في ضوء علم النفس أن أطباء الصحة النفسية الآن يعتبرون أن مسألة الصحة النفسية هي

مسئولية الوعّاظ والدعاة ، حتى قال أحدهم :

(أطباء الصحة النفسية الآن هم الوعّاظ في القديم) .

قال هاري أوفرستريت وبونارد أفرد ستريت : (الشخص الذي يتمتع بالصحة النفسية شخص مؤمن ويندر أن يكون غير ذلك) (١) .

وهذا الشخص الذي يتمتع بصحة نفسية كانت ثمرة إيمان لا بد أنه شخص وجّهت إليه الدعوة إلى الله فاستجاب ولبّى ، فأجدر بالدعاة الذين يدعون الناس إلى الإيمان لتصح نفوسهم بالطمأنينة أن ينظروا في مقدار ما يتمتعون هم به من هذه الصحة النفسية ، لأنه بقدر ما تكون صحتهم النفسية عالية يُفيضون على غيرهم ممن يوجهون إليه دعوتهم .

الدوافع النفسية للعجلة :

هناك عدة دوافع تبعث العجلة في نفس المتعجل منها :

[١] الطابع البشري : وذلك أن العجلة من غرائز الإنسان الفطرية التي تدفعه دائماً إلى تحقيق رغباته وشهواته والتعلق بتملكها أو الحصول عيها دون أناة أو انتظار^(٢) ، ويشهد لهذا الدافع قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] أي خلق عجولاً يبادر الأشياء ويستعجل بوقوعها^(٣) .

[١] ضعف الإرادة : حيث يتميز ضعفاء الإرادة بأنهم أكثر الناس استسلاماً لغرائزهم ومنها العجلة ، وهذا يجعلهم أقرب إلى التعجل في تحقيق ما تمليه

(١) أوفرستريت وبونارد ستريت : العقل الحي ، ترجمة د / عبد العزيز القوصي والسيد محمد عثمان ص ٢٢٨ نقلاً عن القرآن وعلم النفس لعبد العلي الجسماني ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) الموسوعة الجامعة في الآداب والأخلاق : لسعود بن عبد الله الحزيمي ٣ / ١٢٣٦ ط دار الفجر - القاهرة .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : للشيخ السعدي ص ٤٩٥ ط دار ابن حزم - بيروت .

عليهم غرازتهم وشهواتهم ، والاستسلام لرغبات الزوجة والأولاد .

[٣] **الانفعال والاندفاع** : وذلك أن إيمان بعض الناس بفكرة معينة قد يدفعه إلى الغفلة عن معرفة سنن الله في الأمور ، وسوء تقدير الواقع ، والحماسة والاندفاع دون هدوء وتروٍ ، والخطأ في حساب الجوانب والعوامل الأخرى ذات العلاقة بالموضوع .

[٤] **قلة التجربة العملية** : فقلة التجربة في أمور الحياة تؤدي بصاحبها إلى الوقوع في العجلة والتسرع ، وذلك نتيجة لفهمه العابر للأمور ، وافتقاده للحكمة التي تكتسب من تجارب الحياة .

[٥] **البدية والخواطر** : حيث تكون ردة الفعل لدى بعض الناس حسب مايجول في نفسه من خوطر أو رغبات أو ظنون ، ودون تثبيت وتبين لعواقب الأمور وأبعادها ^(١) .

(وفي الغالب تكون هذه الدوافع وراء عجلة المتعجل ، بعضها أو كلها ، وبالطبع تزداد حدة العجلة والاندفاع بحسب اجتماع هذه الدوافع أو تفرقها فمن اجتمعت عليه كل الدوافع كان في أعلى قمم العجلة ، وكان أعجل من السهم عن القوس ، ومن نقصت عنه الدوافع نقص مقدار تعجله شيئاً ما .

وإذا عرفت الدوافع النفسية للعجلة أمكن إعداد الجبهة لمواجهة تلك الدوافع ، وإعدادها ليس سهلاً لأن بعض هذه الدوافع متأصل في النفس متعمق فيها ، فيحتاج إلى مجاهدة وصبر ورياضة للنفس بكافة أنواع الرياضيات ، رياضة كظم الغيظ ، ورياضة الحلم ، ورياضة التخويف من عواقب الأمر ، ورياضة مخالفة هوى النفس ، .. ونحو ذلك ، وهذا يحتاج إلى صبر - كما سبق - .

مع النظر في أخبار وتجارب السابقين في ترويضهم لأنفسهم ولاسيما

(١) الموسوعة الجامعة في الآداب والأخلاق : مرجع سابق ١٢٣٦/٣ - بتصريف - وانظر : القرآن وعلم

النفس : لعبد العلي الجسماني ص ١٥٠ وانظر إلى مكارم الشريعة ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

المشاهير مم عُرِفوا بالأناة والحلم والدهاء والحكمة ، فكما قال ابن الجوزي في مقدمة كتابه الأذكياء : (العقول يلقح بعضها بعضاً) فرب ذكي ليس بفطرته وإنما إكتسبه من النظر من مواقف الأذكياء ، ورب حلِيم ذِي أناة اِكتسبها من النظر في مواقف أصحاب الأناة والحلم والتؤدة ، لكن المهم أن لا يُسلم المرء نفسه للطباع السيئة ويقول : (طبعي هكذا لا أستطيع تغييره) .

ليبدأ ببذل الجهد في التغيير وساعتها تتدخل القوة القادرة التي وعد صاحبها سبحانه قائلاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

[الرعد : ١١] .

وفي المبحث التالي سوف نستعرض بعض الشواهد من الكتاب والسنة على ذم العجلة في أكثر أحوالها ، لعله أن يغري المتعجل بتركه العجلة مادامت مذمومة وعواقبها غير محمودة ، والله المستعان .

